

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتدأؤه . ولما افتتحت التنزيل الكريم بها ، إماماً بتوقيف من النبي ﷺ ، أو باجتهاد من الصحابة - كما حكى القولين القاضي الباقلاني في ترتيب التنزيل - . سُمِّيَتْ بذلك .

قال السيد الجرجاني : فاتحة الكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فيما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالمعوض عن الإضافة إلى الكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية .

وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الكتاب » : لأنها يُفتتح بكتابها المصاحف ، ويقرأ بها في الصلوات . فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة . وتسمى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة تقدم الأم والأصل ؛ أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء .

والعرب تسمى كل أمر جامع أموراً ، وكل مقدم له توابع تبعه « أمّاً » - فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ « أم الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمّاً » وتسمى « السبع الثاني » - جمع مثني كمفعل اسم مكان ، أو مثني بالتشديد من الثنية

على غير قياس - لأنها سبع آيات تنتمي في الصلاة أي تكرر فيها .
والأكثر على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لغةً : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة
للحائط الذي يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملكٍ دونها يتدبذب^(١)

أى منزلةً من منازل الشرف التي قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمّا بمعنى : العلامة - لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتدؤها ،
كلاية التي تكون دلالة على الشيء يستدل به عليه - وإمّا بمعنى : القصة - كما قال كعب
ابن زهير :

ألا أبلغنا هذا المرّض آيةً : أيقظان قال القول ، إذ قال ، أم حلم

أى رسالة منى ، وخبراً عنى - فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تلو قصة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدب نبيه محمداً ﷺ :
بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه في وصفه بها قبل جميع
مهماته ، وجعل - ما أدبه به من ذلك ، وعلمه إياه - منه لجميع خلقه : سنةً يستنون بها ،
وسبيلاً يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقتهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ،
حتى أغنت دلالة ما ظهر ، من قول القائل : بسم الله ، على ما بطن من مراده الذي هو محذوف .

(١) قال السيد محمود محمد شاكر في التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتي :

يتدبذب : يضطرب ويحار . والتدبذبة : تردد الشيء المعلق في الهواء عينة ويسرة . يقول :
أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقاً دونها حاراً يضطرب
ويتردد ، لا يطبق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً بقدر بما جُمِلت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية - كالكلام بمعنى التكليم ، والمطاء بمعنى الإعطاء - والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنی وصفاته الملی . و « الله » علم على ذاته ، تمالي وتقديس . قال ابن عباس : هو الذي يألمه كل شيء ويمعبده وأصله « إله » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفتم الهمزة تخفيفاً لكثرة في الكلام ؛ وبمد الإدغام فتحمت تعظيماً - هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قال الجوهري : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما في اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادٌ مجدٌ إلا أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » (١) فمادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره . اه .

وقد ناقش في كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلامة الشيخ محمد عبده المصري في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها - ثم قال : - وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول ، في نفسه أو بلسانه : إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها في نفسها ، بل ليس في القرآن حرف جاء لتغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلال المنعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبمضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم باللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذي يطميه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنى ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى « الرحمن » المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذي حمل من قال : إن الثاني مؤكد للأول - على قوله هذا - هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرة ، مع عدم التفطن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذي أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعلى فيه معنى المبالغة - كقَمَّال - ويدل في استعمال اللغة على الصفات المارضة - كمطشان وغرثان وغضبان - وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس - كلميم وحكيم وحليم وجميل - والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تملو عن مماثله صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثاني مؤكداً للأول . فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه الفيض للنعم فملا ، لا يمتد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً - لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة - فمندما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أي الثناء بالجليل ، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام في « الحمد » للاستفراق أي استفراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تظاهراً وتمجيداً - كما في الحديث : « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله »^(١) .

(١) لم أعر على هذا الحديث في شيء من أصول السنة .

قال الإمام ابن القيم في « طريق المجرتين » : الملك والحمد في حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود في ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لئيبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، وبجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة ، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته ، وتفصيل الأمر والنهي واسمه جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمد ، وصفاته حمد ، وأعماله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هي حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده في الموجودات ، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر .

ثم قال - : وبالجملة فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسمجانه وحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه اه .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . - تقول : رَبَّهُ يَرْبُهُ فهو رب كما تقول : نمّ عليه يتمّ فهو نمّ - فهو صفة مشبهة ، ويجوز أن يكون

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التريسة وهى : تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب - باللام - لا يقال إلا لله عزّ وجلّ . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة - كربّ الدار - ومنه قوله تعالى : « اَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » (١) « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ » (٢) .
و « الْمَالَمِينَ » جمع عالم وهو : الخلق كلّه وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

إرادها عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل

الحكيم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائى بإثبات ألف « مالك » والباقون بحذفها . قال الزمخشريّ :
ورجحت قراءة « ملك » لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غصاً
طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : « لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » (٣)

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ

قَالَ اَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ

الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ،

لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتماضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة في عبد مملوك في مملكة لهاسلطان ، فلا ريب أن مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارئ القرآن بكل^(١) حرف عشر حسنات - كما رواه الترمذى عن ابن مسعود بإسناد صحيح - وكلاهما صحيح متواتر في السمع .

و « الدين » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كاندن تدان » أى : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إيمًا لتمظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرد تمالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبرى : أى لك ، اللهم ، نخشع ونذل ونستكين . إقراراً لك بالربوبية لا لنيرك - قال - والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمى الطريق المذلل الذى قد وطئته الأقدام ، وذلتته السابلة « معبداً » ومنه قيل للبعير المذلل بالركوب فى الحوائج « معبداً » ومنه سمي العبد « عبداً » لذلتة لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعنى : أن لا يشرك شيئاً مامعه ، لا فى محبته كحجته ، ولا فى خوفه ، ولا فى رجائه ، ولا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٦ - باب ما جاء فىمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بمشراً مثلها . لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

في التوكل عليه ، ولا في العمل له ، ولا في النذر له ، ولا في الخضوع له ، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذي لا يستحقها إلا هو ، وهي كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلا هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للمعبود من تخصيصه ربه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين في عبادتهم ، متشاكسين في وجوههم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى : « وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » (١) الآية . وفي قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِبَّاءُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَأَمِنُنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » (٢) . وفي قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ » (٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ

- (١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِبَّاءُ تَعْبُدُونَ .
- (٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠ و٤١] ونصها : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِبَّاءُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَأَمِنُنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .
- (٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا» (١) الآية . وفي قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمِزْيَةَ وَالْمَنَةَ الثَّلَاثَةَ الْأُخْرَى » (٢) . وحديث (٣) أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يكمفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمرنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ - إلى قوله - وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٤) رواه الترمذي وصححه .

= لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَآمِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩ و ٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمِزْيَةَ وَالْمَنَةَ الثَّلَاثَةَ الْأُخْرَى .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - باب ماجاء لتركن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يملقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبي ﷺ « سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة . والذي نفسي بيده لتركن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ - ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إلهًا كَمَا لَهُمْ =

وأما عبادتهم للأخبار والرهبان ففي قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » (١) فروى الإمام أحمد والترمذي (٢) عن عدى بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » الآية فقالت له : إنا لسنا نمبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقالت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلا بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة . أى ركنها المهم الأظم . وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي » (٣) فسماء عبادة .

= وَاللَّهُ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَمْعُرُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .
(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال : « يا عدى ، اطرح عنك هذا الوثن » . وسمته يقرأ في سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفي الخبر (١) : « الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل » .
 قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطعمه في ذلك ، فلا تزال
 النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفاً منه ، أو رجاءً له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيد
 من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاث
 مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جمل له عدلاً ونداً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ،
 يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .
 (فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ،
 والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ
 وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (٢) ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا (٣) ، رَبُّ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٤) » .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبي) ونصه :
 عن أبي موسى الأشعري قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس .
 اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه
 وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك
 شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
 الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِمَا فَلَ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ،
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

(٤) [٧٣ / الزمل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووقفنا له .

قال الإمام الراغب في تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متمدّماتها لكونها هادية لسأرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وما كان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور العروس على وجهين : قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جمعت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ »^(١) وقال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ »^(٢) قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال : وخيلٍ قد دَلَفَتْ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(٣)

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلًا ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلاّ بعد الأول ، ولا الثالث إلاّ بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه المبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً - كالشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خصّ به الإنسان ، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »^(٤) وقوله تعالى : « الَّذِي قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها : مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشريّ فى الكشاف . وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى مومج . أى رب جيش قد مميت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

فَهْدَىٰ «^(١) وهذه الهداية إما تسخير وإما تلميم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »^(٢) وقوله تعالى « يَا نَّ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »^(٣) وقال في الإنسان ، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »^(٤) وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »^(٥) وقال في عمود : « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »^(٦) وثانيهما الهداية بالدعاء وبمئة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عنى بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »^(٧) . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »^(٨) وهذه الهداية تنسب تارة إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبي عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »^(٩)

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَمْرُسُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَآَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الصَّاعِقَةُ الْمَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢ / السجدة / ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّاصِرُونَ ، وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧ / الإسراء / ٩] ونصها : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحى عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهى الهداية المذكورة فى قوله عز وجل : « وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ » (١) . وقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهِهِمْ آتَتْهُ « (٢) وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٣) . وهذه الهداية هى المعنوية بقوله : « وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ » (٤) . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهدهم . فمن قصد سلطاناً مستترفاً فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسميه ، ولا تطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » (٥) وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » (٦) . فنبه أن ذلك يجهدهم وبفضله جميعاً . وهذه الهداية يصح أن يقال : هى مباحة للمقلد كلهم ، ويصح أن يقال : هى محظورة

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهِهِمْ آتَتْهُ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧ / الحديد / ٢٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إلا على أوليائه ، لما كان في إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها . ومن ذلك قيل :
 إنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص ، بتقديم عبادات . وقد قال
 بعض المحققين : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلا البصير ، ولا يعمل به إلا اليسير .
 ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها ولا يهتدى بها إلا العلماء . وقال بعض الأولياء :
 إن مثل هداية الله مع الناس كمثل سبيلٍ مرَّ على قِلاتٍ ^(١) وغدران ^(٢) ، فيتناول كلُّ قِلتٍ
 منها بقدر سمته - ثم تلا قوله - « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » ^(٣) وقال
 بعضهم : هي كطريقٍ أتى على أرضين فينتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به .
 (والمنزلة الرابعة) من الهداية التمكن من مجاورته في دار الخلد ، وإياها عني الله بقوله
 « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 هَدَانَا لِهَذَا » ^(٤) . فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفي عن أحد بوجه . ومنها ما ينفي

(١) في المصباح : القِلتُ نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . والجمع قِلات ، مثل سهم وسهام .

(٢) الغدران جمع غدِير ، وهو النهر .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا
 فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ
 مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
 النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
 اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ .

عن بعض وبثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » (١) . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » (٢) . وقال : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ » (٣) . فإنه عن الهداية - التي هي التوفيق وإدخال الجنة - دون التي هي الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٤) . وقال في الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » (٥) . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عن الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك - وإن كان هو قد فعله لا محالة - ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صل على محمد . (الثاني) قيل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواية واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠ / الروم / ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » (١) .
 وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَدْنَاهُمْ هُدًى » (٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيقي
 فذلك سبب الخلاص ، وهو المبرر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » (٣)
 (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ
 يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ » (٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » (٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارتهم
 إلى أبعاد الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية - إذ لا تنافي بينها -

(١) [٦٤ / الثمانين / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ
 شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
 نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ

حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
 ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ

رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق « اه كلام الراغب . وبه يعلم تحقيق معنى الهداية في سائر مواقعها في التنزيل الكريم ، وأن الوجوه المأثورة في آية ما - إذا لم تتناف - صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة . قال رحمه الله :

ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف في الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسما مثل قوله « اهدنا الصراط المستقيم » فكل من المفسرين يبرر عن الصراط المستقيم بعبارة تدل بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامتنثال الأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتمددت أسماءه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحد والحصر - مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز؟ فيشار له إلى رغيف - وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تبيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد »

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» (١). أو عن قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (٢). أو عن الصالحين أو الظالمين ، ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتمسّر أو يتمدّد على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدلّ به على نظائره : فإن الظالم لنفسه هو تارك الأمور فاعل المحذور . والمقتصد هو فاعل الواجب وتارك المحرّم . والسابق هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه . فيقول الجيب بحسب حاجة السائل : الظالم الذى يفوت الصلاة ، أو الذى لا يسبغ الوضوء ، أو الذى لا يتم الأركان ونحو ذلك . والمقتصد الذى يصلى فى الوقت - كما أمر - والسابق بالخيرات الذى يصلى الصلاة بواجباتها ومستحباتها ويأتى بالنوافل المستحبة معها . وكذلك يقول مثل هذا فى الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يمدّر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمه فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه كما أخذوا عنه السنة . وإن كان من الناس من غير السنة ، فمن الناس من غير بعض معانى القرآن - إذ لم يتمكن من تفيير لفظه . وأيضاً فقد يخفى على بعض العلماء بعض معانى القرآن ، كما خفى عليه بعض السنة ، فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب والله أعلم .

وتقدم فى مقدمة الكتاب بسط لهذا البحث فارجع إليه . (انظر : ج ١ ص ١٧)

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ونصها : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً في تحقيق هذه الآية :

« كل عبد مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم . فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو : إما من المنضوب عليهم ، وإما من الضالين ؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله » « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » ^(١) . فإن الصراط المستقيم : أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نهيت عنه . وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن تعلم : ما أمر به في ذلك الوقت ، وما نهى عنه ؛ وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل الأمور ؛ وكرهية لترك المحظور . والصراط المستقيم قد فسّر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية في سعاده ونجاته ؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإن انقطع رزقه مات - والموت لا بد منه - فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة في حقه . وكذلك النصر - إذا قدر أنه قهر وغلب حتى قتل - فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما ، فلماذا كان هذا الدعاء مفروضاً عليهم في الصلوات - فرضها ونفلها - وأيضاً فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر : لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتقين « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٢) وكان من المتوكلين « وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى

(١) [١٨ / الكهف / ١٧] ونصها: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢ ، ٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ =

اللَّهُ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» (١) ، وكان ممن ينصره الله ورسوله ومن ينصر الله ينصره (٢) وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون (٣) . فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر . فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب تحصل به كل منفعة ، وتندفع به كل مضرة .

(فائدة) الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ويستمار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة . فالطريق الواضح للحسن ، كالخق للمقل ، في أنه : إذا سير بهما أبلغا السالك النهاية الحسنی .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

أى : بطاعتك وعبادتك، وهم المذكورون في قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » (٤) .

= أَوْ فَرَقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ مِنْهُ يُعَظِّبُهُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] ونصها : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٢) يشير إلى قوله تعالى [٤٧ / محمد / ٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا اللَّهَ بِنَصْرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى [٣٧ / الصافات / ١٧٣] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(٤) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال الأصفهاني: وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير عليهم ، فبين بالوصف أن المراء بالدعاء ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة خاصة . ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كل من حاد عن جادة الإسلام من أى فرقة ونحلة . وتمييز بمض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراد وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبي حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً في أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .

(فوائد) الأولى : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: « آمين » ومعناه : اللهم استجب ، أو كذلك فليكن ، أو كذلك فافعل . وليس من القرآن . بدليل أنه لم يثبت في المصاحف . والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى^(١) عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال: « آمين » تمدّ بها صوته . ولأبي داود : رفع بها صوته . قال الترمذى : هذا حديث حسن ، وفي الباب عن عليّ وأبي هريرة ، وروى عن عليّ وابن مسعود وغيرهم . وعن أبي هريرة قال^(٢) : كان رسول الله ﷺ إذا تلا « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول . رواه أبو داود . وفي الصحيحين^(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن

- (١) أخرجه الترمذى في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٧٠ - باب ما جاء في التأمين .
وأبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٦٨ - باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٢ .
والإمام أحمد في مسنده في : ج ٤ ص ٣١٦ (طبعة الحلبي) .
(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٦٨ - باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٤ .
(٣) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١١١ - باب جهر الإمام بالتأمين .
ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٧٢ .

الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .
وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي موسى مرفوعا : « إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين
فقولوا : آمين ، يجبكم الله » .

الثانية : في ذكر ما اشتملت عليه هذه السورة من المعلوم :
اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت - وهي سبع آيات - على حمد الله تعالى ،
وتمجيده ، والثناء عليه : بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المآد
وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من جوهلم وقوتهم ،
وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى ، وتزنيه أن يكون له شريك
أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم - وهو الدين القويم -
وتثبيتهم عليه حتى يُفَضَى بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء
والصالحين .

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير
من مسالك الباطل لئلا يمحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون .
قال العلامة الشيخ محمد عبده في تفسيره :

الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت
فيها . ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم : إن أسرار

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٦٢ ونصه :

عن أبي موسى الأشعري قال : إن رسول الله ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلما صلاتنا ،
فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر فكبروا . وإذا قال :
غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقولوا : آمين . يجبكم الله . فإذا كبر وركع فكبروا
واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم » .

القرآن في الفاتحة ، وأسرار الفاتحة في البسملة ، وأسرار البسملة في الباء ، وأسرار الباء في نقطتها ! فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو ممقول في نفسه . وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى إعدام القرآن خاصته ، وهي البيان . - قال - : وبيان ما أريد : أن ما نزل القرآن لأجله أمور :

أحدها التوحيد : لأن الناس كانوا كلهم وثنيين - وإن كان بعضهم يدعى التوحيد - ثانيها وعد من أخذه ، وتبشير به بحسن المثوبة ، ووعد من لم يأخذه ، وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد ، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعد - كذلك - يشمل نعمهما وشقاءهما . فقد وعد الله المؤمنين : بالاستخلاف في الأرض ، والعزة ، والسلطان ، والسيادة . وأوعد المخالفين : بالخزي والشقاء في الدنيا . كما وعد في الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبتته في النفوس .

رابعها بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار الذين تمدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار ، واختيار طريق المحسنين .

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن ، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخرية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد ففي قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لأنه ناطق بأن كل حمدٍ وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ، ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية . ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصّح به بقوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . ولفظ « رب » ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإتمام . وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في

نفسه وفي الآفاق منه عزّ وجلّ . فليس في الكون متصرف بالإيجاد ، والإشقاء ، والإسماعاد سواء . ثم إن التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين . ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه ، بل استكمل بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم ، وهي اتخاذ أولياء من دون الله تمتد لهم السلطة الغيبية ، يُدعون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى . وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

« وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوى في « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فذكر الرحمة في أول الكتاب ، وهي التي وسعت كل شيء . وعدّ بالإحسان - لا سيما وقد كررها مرة ثانية - تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا ، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمن الوعد والوعيد معاً ، لأن معنى الدين الخضوع ، أي : إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها ، لاحقيقة ولا ادعاء ؛ وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته - ظاهراً وباطناً - يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ؛ وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو : إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسيء ، وذلك وعدّ ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وهو الذي من سلكه فاز ، ومن تنكبته هلك . وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة ، فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أوضح معناها بمض الإيضاح بقوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أي : إنه قد وضع لنا صراطاً سبيبه ويحدده . ويكون مناط السعادة في الاستقامة عليه ، والشقاء في الانحراف عنه . وهذه الاستقامة عليه هي روح العبادة . ويشبه هذا قوله تعالى :

«وَالْعَصْرَ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحْقِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ»^(١). فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بمد التوحيد . والفاتحة يجملتها تنفخ روح العبادة في التدبر لها . وروح العبادة هي إثراب القلوب خشية الله ، وهيبته ، والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعلٍ وكيفية وحركات اللسان والأعضاء . فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه ؛ وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية ، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة . ومنح العبادة الفكر والمبرة ؛ وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصریح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصاحح يصيح : ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبية يدعو إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَى »^(٢) حيث بين أن القصص إنما هو للمظة والاعتبار . وفي قوله تعالى : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تصریح بأن من دون المنعم عليهم فريقان : فريق ضل عن صراط الله ؛ وفريق جاحده ، وعاند من يدعو إليه ، فكان محفوفاً بالغضب الإلهي ، والخزي في هذه الحياة الدنيا . وبقى القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد المبرة ، فيشرح حال الظالمين الذين قارموا الحق ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها

(١) [١٠٣ / العصر / ١-٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَى ،

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ .

القرآن تفصيلاً . فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى « أم الكتاب » .

الثالثة : مما صح في فضلها من الأخبار : ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد ابن المَعْلَى رضى الله عنه قال ^(١) :

كفنت أصلي في المسجد فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه . فقلت : يارسول الله إني كنت أصلي . فقال : ألم يقل الله « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » ؟ - ثم قال لي : « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلت : يارسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن . قال : « الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

وروى ^(٢) الامام أحمد والترمذي بإسناد حسن صحيح عن أبي هريرة ، نحوه ، غير أن القصة مع أبي بن كعب ، وفي آخره :

« والذي نفسى بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني » .

واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الايات والسور على بعض ، كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم : إسحق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربي وابن الحضار من المالكية ، وذلك بين واضح .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال ^(٣) :

كننا في مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم ، وإن نفرنا غيب ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - باب ماجاء في فاتحة الكتاب .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده في : ج ٥ ص ١١٤ (طيمة الحلبي) .

والترمذي في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١ - باب ماجاء في فضل فاتحة الكتاب .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٩ - باب فاتحة الكتاب .

فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية . فراه ، فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبناً ؛ فلما رجع قلنا له : أ كفت تحسن رقية ، أو كنت ترقى ؟ قال : لا ، مارقت إلا بأَم الكتاب . قلنا : لا تُحدِثوا شيئاً حتى نأتى ، أو نسأل ، النبي ﷺ . فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبي ﷺ فقال « وما كان يُدريه أنها رقية ؟ اقسما واضربوا لي بسهم » . وهكذا رواه مسلم وأبو داود . وفي بعض روايات مسلم : أن أبا سميد الخدرى هو الذى رقى ذلك السليم - يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاعلاً - .

وروى مسلم والنسائى عن ابن عباس قال (١) :

بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال (٢) « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأَم القرآن فهمى خِداج (ثلاثاً) غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام . فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى على عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى - وقال مرة فوّض إلى عبدى - فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

ويكنى من شرح الفاتحة هذا المقدار الجليل ، والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٣٨ .